

وهي ترمى بذلك كله إلى توهين العزائم، وإفساد الأخلاق، وحل العري، وتقطيع الوشائج بين المسلمين، وقطع الصلة بينهم وبين ما ضيهم ليكونوا صيدا سهلا وطعاما شهيا، وتكون بلادهم الشاسعة، وأراضيهم الواسعة منابت غلات، ومناجم آلات، يتمتع بها المستعمرون ويسعدون، ويملكون ويحكمون. فإذا متلاً جو بلادنا بالدعاوة الضارة، التي تذاق وتنشر عن كتبنا وقديمنا فلا مناص للعقول أن تلتفت إلى غير هذه الكتب، وتلتمس غير هذه القديم، فلا تجد ذلك إلا في تلك الثقافات الطارئة التي بينا بعض مضارها وأخطارها، والكبر ما تمنى به الأمم بعد غزوها بالحرب والفتح، أن تغزى بالأفكار والثقافات، بل إن غزوها بالأفكار والثقافات لأشد عليها خطراً وأفعل فيها أثراً، فإن جرح الحسام قد يندمل، وشرخ العظام قد ينجبر، أما أدواء القلوب والروس، فلا شفاء منها إلا بالموت، وقديما قيل "جرح اللسان أنكى من جرح السنان".

ليس كاتب هذا من المتعصبين المنقطعين عن مجاراة الحركات الحديثة، وليس من المسرفين الذين يقولون: "ما ترك الأول للآخر شيئا" وليس بالداعية إلى جمود العلم والفقه والأدب والتاريخ وغير ذلك على ما تركها لنا السلف، لا نحيد عنها يمنا ولا يسرة، ولكنه امرؤ كابد من هذا وذاك، فلا بس القديم والحديث فتى ناشئا يصبح بهما صباحه، ويمسى عليهما مساءه، ثم لا بسهما كهلا فتيا مكتمل الفهم والرشاد، خراجا ولاجا طُلعة ذواقا، فإنه بهما لجد خير.

لكنني أومن إيماناً يشاركني فيه كل منصف بأنه لولا القدماء لضاع العلم، والضطرب الرأي، وضلت الافهام، وهذه قضية لا أزدد فيها نظرا إلا ازددت بها ثقة، وازدادت عندي وضوحا، والتاريخ على ذلك من شاهدين، فقد علمنا أن عصر الائمة المجتهدين في الفقه والشريعة كان ينطوى على فقهاء يعدون بالمئات، كلهم يعكف على الأدلة، ويستنبط الأحكام وينظر في المصالح، ويعلل ويخرج، ويدعو إلى الحق ويرشد إلى الصواب، حتى ملئوا طباق الأرض علما، وتركوا من